أبو الحجّاج البيّاسي مؤرخ وأديب من الأندلس

شفيق جاسر أحمد محمود*

الملخص

كان سقوط الخلافة بالأندلس ، وقيام دول الطوائف ، حافزاً للنصارى على الاندفاع نحو تحقيق هدفهم فى القضاء على المسلمين . ولم تُجد فى صدهم جهود المرابطين وخلفائهم الموحدين . فكان ان سقطت الأندلس وعم المسلمين التشرد والقتل والضياع .

ومن الغريب أن النهضة الفكرية التى نشأت فى عهد دول الطوائف قد استمرت وازدهرت فى ذلك العصر المضطرب وامتازت باتجاهها الى العلوم الدينية والآداب دون العلوم الدنيوية .

وفى هذا العصر عاش جمال الدين ، أبو الحجاج ، يوسف ابن محمد بن ابراهيم الأنصارى ، البياسى . حيث ولد فى بلنسيه عام ٥٧٣ هـ/ ١١٧٧ م . ونشأ فيها ، ثم طاف بلاد الأندلس وأخذ الفقه والحديث والأدب والتاريخ عن شيوخها .

وعرف البياسى بشخصيته المرحة ، كما عرف بالبخل وضعف الوازع الدينى فكان مولعًا بالغلمان مقبلا على الشراب واللهو .

ومع ذلك فقد اعتبر من أشياخ المؤرخين ومن فضلاء الأندلس . فكان اخباريا عالما ولغويا بارعا .

هاجر الى تونس بعد سقوط بلنسيه سنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ م ، وعاش فى بلاط أميرها أبى زكريا يحيى الحفصى فى راتب وحظوة . وقد عمل بالتعليم فى كل مكان حل فيه ، ويعتبر الأمير أبو زكريا من طلابه .

ومن مؤلفاته « الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام ، فى جزئين ، تم تحقيقهما فى رسالتى ماجستير بجامعة عين شمس » ، « والحماسة المغربية » ، أو « الحماسة التونسية » وما زالت مخطوطة .

اعتمد فى كتابته التاريخية أسلوب الحوليات ، كما كان يورد الروايات دون التعليق عليها ، ويكتفى بذكر اسم الكتاب الذى نقل عنه أو اسم المؤلف . كما أنه لم يستعمل الاسناد فى روايته للأحاديث والأخبار ، وكان يركز على الحوادث السياسية والنزاعات والحروب ، ويغفل النواحى الاجتماعية والاقتصادية وغيرها . وقد اعتمد كثيرا على الطبرى ، وكان يميل إلى آل البيت ، كما كان يكثر من تسجيل الأشعار والخطب ، وأسلوبه سهل ومختصر وواضح .

توفى البيّاسى فى تونس ودفن فيها سنة ٦٥٣ هـ/ ١٢٥٥ م ، وكان قد فقد مركزه المرموق بعد وفاة الأمير أبى زكريا .

لابد لنا قبل الحديث عن هذا المؤرخ والأديب ، من أن نبين الأحوال السياسية والاجتماعية والفكرية فى الأندلس منذ سقوط الخلافة الاموية فيها ، حتى سقوط الأندلس نفسها بأيدى النصارى .

أدت الثورة العارمة التى قامت فى عهد هشام الثالث الملقب بالمعتمد (٤٢٣هـ/ ١٠٣١م » الى الاطاحة به والقضاء على الخلافة ، وانقسام الاندلس الى دويلات متعددة ومتنافرة ، سميت بدول الطوائف . وقد ادى تهديد النصارى لهذه الدويلات الى شعور حكامها بالخطر المحدق بهم ـــ خاصة بعد سقوط طليطلة بيد الفونس الثالث القشتالى ـــ فاستنجدوا بالمرابطين ليصدوا عنهم هذا الخطر .

واستجاب المرابطون لاستغاثة اخوانهم ، فعبر يوسف بن تاشفين سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) الى الاندلس ، مدفوعا بحماسه الدينى ، فهزم الفونس فى معركة الزلاقة فى نفس العام (عنان رقم ١ ، ١٩٦٤ :٢٥) ثم عاد الى بلاده . ولكنه لم يلبث ان اضطر للعودة الى الاندلس ثانية سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) لصد هجوم الفونس السادس على اشبيلية . وفى هذه المرة شن حربا على النصارى وعلى ملوك الطوائف معا . وقام بالاستيلاء على جميع الاندلس ما عدا بلنسيه التى استولى عليها المرابطون فيما بعد ، وطليطلة التى بقيت بيد الفونس .

وهكذا أصبحت الأندلس ولاية مرابطية لمدة نصف قرن . حتى سقطت الدولة المرابطية على يد الثورة الموحدية فى افريقيا (٥١٥ ـــ ٩١٩ هـ/ ١١٢١ ـــ ١١٢٥ م) . ولم يلبث الموحدون ان عبروا إلى الأندلس سنة (٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م) ، فاستولوا على معظم مدنها وحكموها مدة قرن ونصف ، بواسطة نواب كانوا يرسلونهم لحكمها . (عاشور ، ١٩٨٢ : ٥٦٥)

ولقد بذل الموحدون جهودا كبيرة فى مقاومة المد النصرانى ، وحققوا فى معركة الارك الشهيرة عام (٥٩١ هـ/ ١١٩٥ م) نصرا مؤزرا . وانزلوا بالقشتاليين خسائر كبيرة ، واوقفوا المد النصرانى بالاندلس ، ولو إلى حين .

ولكن البابا انوسنت الثالث (٥٩٥ هـ ـــ ٦١٣ هـ/ ١١٩٨ ـــ ١٢١٨ م) اثار الحماس الصليبى فى اسبانيا واوربا ، وشجع الاوربيين على الانضمام للأسبان فى حربهم المقدسة ضد المسلمين . فاجتمع عدد كبير من فرسان اوروبا تحت قيادة رئيس اساقفة باربون ، كما انضم ملك ارغون وملك فارى الى الفونس التاسع ، وملك قشتالة ، فى حربه ضد المسلمين . وبذلك لم يتخلف عن هذا الحلف الصليبى سوى ملك ليون . وعند ذلك وقعت معركة العقاب ، التى انتصر فيها التحالف النصرانى على الخليفة محمد الناصر الموحدى سنة (٦٠٩ هـ/ ١٢٢٢ م) (عاشور : ١٩٨٢ : ٥٦٥) ، فكانت هذه الواقعة قاصمة الظهر للقوى الموحدية بالأندلس ، فتساقطت مدن الأندلس واحدة بعد الأخرى بأيدى النصارى (عنان رقم ١ ، ١٩٦٤ : ٢٨) .

وزاد الحالة سوءاً ، ان منطقة بلنسيه ومرسيه (مملكة المشرق) كانت خاضعة لحكومة أندلسية قبل استيلاء الموحدين عليها سنة ٥١٧ هـ/ ١١٧١ م .

وكانت هذه الحكومة تمارس حكمها وفقا للتقاليد الأندلسية . وبقيت في عهد الموحدين تتميز بطابع أندلسى خاص ، بخلاف مناطق الوسط والغرب . ويرجع ذلك الى حظوة مردنيش لدى الخلفاء الموحدين الذين منحوهم سلطات واسعة ، لذلك كانت هذه المنطقة أول من قام بحركة تحريرية اندلسية ضد الموحدين ، بعد هزيمتهم فى معركة العقاب المذكورة . وتزعّم هذه الحركة المتوكل بن هود فى مرسيه ، والرئيس جميل بن زيان بن مردنيش فى بلنسيه ، ومحمد ابن الأحمر فى أواسط الأندلس . (عنان رقم ١ ، ١٩٦٤ : ٣٢)

ولكن هذه الحركات كانت ضعيفة لا تستطيع مقاومة المد النصرانى . فقام الفونس التاسع بانتزاع ماردە وبطليوس ، وغيرها فى الغرب (٦٢٧ هـ/ ١٢٣٠ م) ثم قام فرناندو الثالث بانتزاع قرطبة فى سنة (٦٦٣هـ/ ١٢٣٦ م) . ولم يهب ابن هود لنجدتها لانشغاله بتوطيد سلطانه فى انحطاط معنويات المسلمين ، فاستطاع خايمة الاول ، ملك الأراغون ان يستولى على بلنسيه عاصمة المشرق عام (٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ م) بعد ان كان قد استولى قبل ذلك على الجزائر الشرقية .

لقد كانت فترة الانهيار هذه ، وما تخللها من فتن وحروب أهلية ، بالاضافة لتمادى النصارى فى غاراتهم وقسوتهم ، من أقصى عهود تاريخ الأندلس ، حيث عمت المجاعات ، وتشرد المسلمون وفقدوا أموالهم وأولادهم وأعراضهم ، واجبزوا على التنصر أو الموت ، فانتشرت الأوبئة وعمت المصائب وتقوقع من تبقى من المسلمين فى الجنوب ، فيما وراء النهر الكبير فى انتظار مصيرهم المحتوم وهو الوقوع بأيدى النصارى ، وتشرد معظم المسلمين الى شمال افريقية ومنهم أبو الحجاج البياسى . وكان لقيام مملكة غرناطة فى ذلك الجزء المتبقى أثر كبير فى تأخير سقوطه فترة من الزمن . (عنان ٢ ، ١٩٦٤ : ٦٤٣)

الحركة الفكرية فى تلك الفترة :

كانت الدولة المرابطية دولة عسكرية دينية ، تغلب عليها البداوة ولا تهتم كثيرا بالنواحى الفكرية والادبية (عنان ٢ ، ١٩٦٤ : ٦٤٥) . لذلك فان الحركة الفكرية التى ازدهرت فى عهدها لم تكن الا امتدادا واستمرارا للنهضة الفكرية الزاهرة التى قامت فى ظل دول الطوائف ، تلك الدول التى رغم ضعفها السياسى واختلافها فيما بينها الا انها كانت تحرص على تشجيع الحركة الفكرية وخصوصا الآداب .

أما الدولة الموحدية ، فكان عصرها الطويل فى الأندلس أحفل عصور الأندلس بالحركات الفكرية حتى فى أحلك ظروف الهزيمة والتفكك والانهيار ، فقد حافظت الحركة الفكرية على استمراريتها .

وعندما اضطر العلماء والأدباء والمفكرون الى الهجرة الى مراكش أو تونس ، فقد هاجروا بكامل زخمهم وحماسهم الى الاوطان الجديدة وازدهرت الحركة الفكرية فى المهجر مرة أخرى ، وربما كان ذلك لأن الدولة الموحدية كانت حامية للفنون والآداب برعاية معظم خلفائها الذين كانوا من العلماء ، أمثال مؤسسها محمد بن تومرت ، وأول خلفائه عبد المؤمن ، وابى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، الذى جمع حوله ابن رشد وابن طفيل وابن زهر وغيرهم .

لهذا جرت الدولة الموحدية طوال أيامها على رعاية العلماء والمفكرين وحشدهم فى بلاطها فى مراكش واشبيلية ، كما اطلقت حرية البحث والتفكير .

ومن مميزات سير الحركة الفكرية الأندلسية فى العصر الموحدى ، تماوجها وعدم استقرارها (عنان ٢ : ١٩٦٤ : ٦٤٨) ، خصوصا لدى بدء سقوط مدنها ، حيث هاجر العلماء الى اشبيلية وهاجر علماء المنطقة الوسطى بعد سقوط قرطبة وجيّان الى غرناطة فى الجنوب . وعندما انهار شرق الأندلس ، غادر علماء شاطبة ، وبلنسية ، ودانية ، بلادهم متجهين اما الى مرسية أو إلى افريقية ، ولا سيما تونس . ومنهم ابن الابّار القضاعى ، وابو المطرف بن عمير المخزومى ، وابو عبد اللّه بن الحيان ، وابو الحجاج البياسى .

هذا ويلاحظ على هذه الحركة الفكرية الأندلسية فى هذا العصر المضطرب سياسيا واجتماعيا انها كانت تتجه إلى العلوم الدينية والآداب دون العلوم الدنيوية (عنان ٢ ، ١٩٦٤ : ٦٤٩) ، كما بلغ الادب ذروته فى فترة الانهيار العام ، كما بلغ الشعر منتهى الروعة لأن سقوط البلاد وتشتت الاحبة وزوال الدين اذكى لوعة الشعر والنثر فنظموا المراثى الخالدة شعراً ونثراً .

هذا وقد أدى الاحتكاك بين المهاجرين من العلماء الأندلسيين وأمثالهم من أهل البلاد التى حلّوا فيها إلى صراع بين الفريقين ، حيث اعتقد المهاجرون أنهم أعلم من زملائهم وأولى منهم بالتكريم ، بينما احسّ العلماء من أهل البلاد بأن على العلماء المهاجرين أن يتواضعوا ويقنعوا بما حصلوا عليه . وقد بدأ هذا الصراع جليا في تراجم العلماء الأندلسيين المهاجرين ، حيث يندر أن تقرأ لأحدهم شيئا إلا وتلمس فيه المرارة الناجمة عن الحنين إلى الوطن ، والحسرة على ما أصاب بلادهم واخوانهم من الأسبان ، وخيبة أملهم فى مهجرهم الجديد . وأمثال ذلك كثيرة عند على بن سعيد ، وابى الحطاب بن دحية وابى ياسر الطرطوشى وابن الأبار والمقرى وغيرهم (المقرى ٦ ، ١٩٢٦ : ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٣٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤) .

وقد كان هذا الصراع واضحاً فى تونس لكثرة من نزلها من العلماء الأندلسيين فى عهد أميرها ابى زكريا يحيى الحفصى وابنه المستنصر[١] ولكون معظم العلماء المهاجرين من أسر عربية عريقة كابى المطرف بن عمير المخزومى ، وابن الأبار القضاعى ، وابى الحجاج الانصارى البياسى . فكون هؤلاء عصبة موجهة ضد شيوخ البساط من الموحدين والعلماء التونسيين الآخرين ، فكانوا يحاولون الاستئثار بالسلطة والوظائف الكبرى فيتجمعون حول هذا الأمير أو ذاك ، مع حرصهم الدائم على

الظهور بمظهر المبتعد عن السياسة ، حفاظا على أرزاقهم وأرواحهم .

هذا موجز لأوضاع الأندلس فى عصر البياسى من النواحى السياسية والاجتماعية والفكرية ، ولا شك انه كغيره من العلماء قد عايش الاحداث وتأثر بها .

أبو الحجاج البياسى :

هو جمال الدين ، أبو الحجاج ، يوسف بن محمد بن ابراهيم ، الأنصارى ، البياسى . لقب بالانصارى (ابن خلكان ، ٥٤٨٨) ، لأنه من أصل مشرقى ، من الأنصار ، الذين جاؤوا إلى الأندلس مع الفتح الاسلامى ، أو هاجروا اليها من المشرق أو المغرب بعد الفتح . ولم استطع تحديد فيما اذا كان أوسيًا أم خزرجياً . وقد اعتبر من أشراف علماء الأندلس ، كغيره من العلماء والفقهاء العرب فيها . امثال إبراهيم بن الحجاج ، أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن خالد بن عماره الانصارى من غرناطة (ابن العماد ، ١٣٥١ هـ : ٢٦٢) . ومحمد بن عبد الرحيم بن محمد بن الفرج بن هاشم ، الأنصارى الخزرجى من غرناطة (ابن الآبار ، ١٩٥٦ :٤٠٠) وغيرهم .

أما لقبه (البيّاسى) ، فراجع لأن أسرته أصلها من (بياسه Baeza)[٢] أما هو فقد ولد فى بلنسيه (ابن الآبار ، ١٩٦٣ :٣) ، ولم استطع تحديد التاريخ الذى هاجرت فيه أسرته من بياسه إلى بلنسيه ــ وبلنسيه هى إحدى القواعد الهامة فى شرق الأندلس ، ذات جمال وأشجار وكانت تتسم بالطابع العربى الأندلسى ، رغم تبعيتها للمرابطين والموحدين من بعدهم لفترة طويلة ، وسمى اهلها بعرب الاندلس (ياقوت ج١ ، ١٩٥٠ : ٤٩٠ ــ ٤٩١) ــ وقد اختلف فى الشهر الذى ولد فيه ، وان كان من المتفق عليه أنه ولد عام ٥٧٣ هـ/ ١١٧٧ م .

ولم استطع العثور على معلومات عن والده وطفولته ، وكل ما عثرت عليه ، أنه من أسرة شريفة ، وأنه عاش حياة سهلة مترفة فى بلنسيه ، وتعلم على أيدى علمائها ، وتطبع بطابعها العربى .

شيوخه :

من شيوخه فى الفقه والحديث والأدب ، حيان بن عبد الله بن محمد بن هشام (ابن الابار ج١ ، ١٩٥٦ : ٢٨٧ ــ ٢٨٩) .. بن حيان الأنصارى ، الأوسى البلنسى ، المتوفى سنة (٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م) والمكنى بابن البقاء .

ومن شيوخه فى التاريخ أبو الخطاب ، أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب القيسى (ابن الابار ، ١٩٥٦ : ١٧٢/ المقرى ج٢ ، ١٩٢٦ : ١٤٢) ، البلنسى ، المتوفى بمراكش سنة (٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م) الذى عمل قاضياً لبلنسيه مرتين .

كما أخذ الأدب أيضا عن أبى سليمان (كحاله ج٦ ، ١٩٥٧ : ٦١) ، داود ، بن حوط اللّه الأنصارى ، وهو عبد الله بن سليمان بن داود بن حوط اللّه الأنصارى ، الحارثى ، الأندلسى ، الأندى المحدث والمقرى ، الذى تولى قضاء اشبيلية وقرطبة ، وتوفى بغرناطة سنة ٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م وأخذ الحديث عن أبى عبد اللّه ، محمد بن عبد الله ، بن سليمان بن عثمان ابن هاجر الأنصارى البلنسى المتوفى عام ٥٩٨ هـ/ ١٢٠١ م (المقرى ج٣ ، ١٩٢٦ : ٩) ، واخذ الحديث ايضا عن صديقه عبد اللّه بن ابى بكر بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن احمد بن ابى بكر القضاعى ، ــ والد ابن الابار ــ الذى كان يكبره بعامين ، والمتوفى سنة ٦١٩ هـ/ ١٢٢٢ م ، وغيرهم (ابن الابار ، ١٩٥٦ : ١٤٤١)

تنقلاته فى بلاد الاندلس :

تنقل البياسى فى بلاد الأندلس ، وطاف أكثرها ، فزار اشبيلية[٣] ، واقام فيها فترة طويلة يأخذ عن أدبائها ومعاهدها ، ويعاشر ما جنيها وغلمانها ، ويقول النكت التى اشتهر بها أهلها ، حتى أصبح مختصا فيها .

كما زار شريش[٤] ، حيث لها فى جنائن واديها ، فكانت ايامه فى واديها ووادى حمص[٥] أحلى أيام عمره .

ثم زار الجزيرة الخضراء[٦] ــ وهى حديقة مشهورة بالأندلس ، وقبالتها من البر سبته ــ وفيها خالط العلماء والشعراء ، واقام فيها زمنا يلهو ويعلم ، والتقى فيها بابن سعيد المغربى ، صديقه . حيث يقول ابن سعيد عن ذلك فى اختصار القدح المعلى « صحبته زمانا فى اشبيلية ، ثم بالجزيرة الخضراء ، ثم حاضرته غير مامرة بحضرة تونس ، وروى عنه ابن سعيد ابياتا من الشعر أنشده إياها البياسى فى طالب من اعيان الجزيرة الخضراء ، تهافت فى حبه جماعة من الأدباء والشعراء .

قد سلونـــا عن الـــذى تدريـــه ... وجفونـــاه اذ جفـــا بالتيـــه
وتركنـــاه صاغـــرا لانـــاس ... خدعـــوه بالـــزور والتمويـــه
لمضـــل يهديـــه نحـــو مضـــل ... وسفيـــه يقـــوده لسفيـــه

ويذكر ابن سعيد [٧] ان سبب هجرة البياسى من الجزيرة الخضراء ، أديب اسمه (الفار)[٨] وكان هذا الفار هائما بالطالب الذى يهواه البياسى فتسلط الفار على البياسى ، الذى كان يلقب ايضا بـ (القط) ، حتى الجأه للرحيل عن الجزيرة الخضراء ، فقال احد الشعراء (ابن سعيد ، ١٩٥٩ : ٩٥) فى ذلك :ــ

عذرت ابـــا الحجـــاج من رب شيبـــة ... غدا لابسا فى الحب ثوبـــاً من العـــار
والجأه الفـــار المشارك للنـــوى ... ولم أر قطـــا قبلـــه فرّ من فار

أخلاقه :

يروى ابن سعيد ـــ وهو كما ذكرت ممن عاصروا البياسى وعاشروه فى أماكن متعددة ، ولمدة طويلة ـــ ان البياسى كان بخيلا يقتر على نفسه ، ولا ينفق الا بقدر محدود ، رغم انه كان يتحصل لديه الكثير من المرتب واموال الهبات والاحسان ، وخصوصا فى تونس . والظاهر ان هذه الصفة قد غلبت عليه منذ طوافه فى الأندلس ، بعد هجرته من بلنسية بحثا عن عمل ، وبسبب ما كابده هو وأمثاله من العلماء المهاجرين . مما جعله يبالغ فى تقدير المادة والحرص عليها ، مخالفا بذلك ما يتوقع من شخص مثله نشأ فى اسرة شريفة فى بلنسية ، حيث حياة الترف والسعة (ابن سعيد ، ١٩٥٩ : ٩٤)

كما يروى ابن سعيد ان البياسى كان مطعوناً به من الناحية الدينية ، فيقول فى ذلك : ((... وفى جميع ذلك استفدت من فنون آدابه ، ما لا أنسى به ذكره ، ولا انتقص ـــ متى أخذته الالسن من جهة الأمور الدينية ـــ قدره (ابن سعيد ، ١٩٥٩ : ٩٤))) وان صح هذا ، وهو على الاغلب صحيح ، فلا غرابة فيما روى عنه من هيام بالغلمان ، واقبال على الشراب ، ومنادمة للماجنين .

ولم يتب عن طبعه هذا حتى بعد ان تقدمت به السن ، وكابد مشاق الحياة فى رحلة هجرته . حيث يروى ابن سعيد فى اختصار القدح المعلى ما نصه ((ولما التقينا بتونس بعد ايابى من المشرق ، وقد دلج ظلام الشعر على صبح وجهه المشرق (اى وجه الغلام) قلت لأبى الحجاج مشيرا الى محبوبه وقد غطى هواه عنده على عيوبه :ـــ

خلي ابـــا الحجـــاج هذا الـــذى ... قد كنت فيـــــه دائم الوجـــــد
فانظـــر الى لحيتـــه واعـــتبر ... فيمـــا جنـــى الشعـــر على الخد

فاطرق ـــ البياسى ـــ ساعة ثم قال :ـــ

لئن غدا الشعر شعاراً لـــه ... فإنـــــه كالـــــوشى للبرد
وهل ترى احسن من روضة ... يلتقـــي فيها الآس بالـــورد !! ؟

فتركته لهواه ، وايقنت انه لا يفارقه الى ان يلاقى صداه .

كما روى ابن عذارى ان البياسى كان يشرب الخمر ، مع غيره من الشعراء ، حيث اخبره البياسى نفسه بأنه كان مرة يحتسى الخمر مع الشاعر ابى حفص بن رضى ، فدخل شيخ ضخم الجثة مستثقلا فقال ابو الحجاج (البياسى) :ـــ

اسقنـــى الكـــاس صاحيـــه ... ودع الشيـــــخ ناحيـــــة

فقال ابو جعفـــر :

ان تكـــــن ساقيـــــا له ... ليس ترويـــــه ساقيـــــة

وقد ادى سلوكه هذا الى أن يكون ذا شخصية مرحة ، مقبلة على المزاح وحب النكت التى تتطلبها مجالس اللهو والعبث . فكان حافظا لنكت وتواريخ الاندلس قديمها وحديثها ، ذاكرا للفكاهات التى صيرته للملوك والكبراء جليسا ونديما (ابن سعيد ، ١٩٥٩ : ٩٤) .

ثقافته :

قال عنه ابن سعيد :ــ ((من اشياخ المؤرخين ، الادباء المشهورين بالتصنيف والاقراء (ابن سعيد ، ١٩٥٩ : ٩٤) واضاف ((... ثم حاضرته غير مامره بحضرة تونس ــ ادام الله لمالكها اتصال الظهور والاعتلاء ــ وفى جميع ذلك استفدت من فنون آدابه ما لا انسى به ذكره ... ، كان حافظا لنكت وتواريخ الاندلس قديما وحديثا ...)) (ابن سعيد ، ١٩٥٩ : ٩٤)

وقال عنه ابن القنفذ القسنطينى ((كان اديبا محدثا فاضلا)) .

ويقول : ((وجمع له ــ اى للأمير ابى زكريا يحيى ــ احاديث كتاب (المستصفى) ، واستخراجها من الامهات ، ونبه على الصحيح منها والسقيم)) (ابن القنفذ ، ١٩٦٨ :١١٩) مما يدل على انه كان واسع الاطلاع فى النواحى الدينية ، بالرغم مما روى عنه بأنه كان مطعونا به من هذه الناحية .

ويقول ابن العماد : ((هو احد فضلاء الاندلس وحفاظها المتقنين . كان اديبا بارعا فاضلا مطلعا على اقسام الكلام من النظم والنثر ، وراويا لوقائعها وضروبها . وايامها . وبلغنى انه كان يحفظ الاشعار)) (ابن العماد ، ١٣٥١ هـ : ٢٦٢)

ويقول عنه السيوطى : ((كان علامة ، اخباريا ، لغويا ، بارعا فى العربية وضروبها يحفظ الحماسة ، وديوان المتنبى ، وابى تمام ، وسقط الزند ، والسبع المعلقات)) (السيوطى ، ١٩٦٤ : ٤٢٣)

هذه الشهادات تدل على مدى اتساع ثقافة البياسى التى اكتسبها من بيئته الثقافية فى بلنسيه ، ومن تطوافه بحواضر الأندلس من اشبيلية الى شريش الى الجزيرة الخضراء ثم الى تونس . حيث استقر فى ظل الحفصيين فى عهد ابى زكريا الحفصى وابنه المستنصر وكانت لدى اولهما اكبر مكتبة في ذلك العصر ، تضم نفائس امهات الكتب ، من ادبية وتاريخية وعلمية ، وقد تأثر البياسى بها ، فنقل عن التاريخية منها كتابه الشهير (الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام) ومنها تاريخ الطبرى ، وابى مخنف ، والمدائنى والمسعودى والواقدى وابى بشير الدولابى ، وابن قتيبة ، وابن الاثير وغيرهم .

كما جمع مادة كتابه الثانى (الحماسة المغربية) من ديوان ابى تمام والبحترى والسبع المعلقات ، وسقط الزند ، وغيرها من الكتب الادبية ، والدواوين الشعرية فكان وجوده فى بلاط الاميرابى

زكريا حافزا له على تاليف كل ما نسب اليه من كتب فى عهد هذا الامير وله . وذلك ارضاء له وطمعا فى عطائه والتقرب اليه ، واعترافا بفضله . لذلك كانت للبياسى منزلة حسنة لدى هذا الامير ، حتى عد من اشياخ المؤرخين فى عهده ، حيث عاش البياسى لديه فى راتب وحظوة .

وانقل هنا ما قاله البياسى عن نفسه فى صدر كتابه (الحماسة المغربية) (ابن خلكان ج٦ ٢٣٦٠) تدليلا على ضلوعه فى الادب بالاضافة لفن التاريخ : ((اما بعد .. فانى كنت فى اوان حداثتى ، وزمان شبيبتى ، ذا ولوع بالادب ، ومحبة لكلام العرب ، ولم ازل متتبعاً لمعانيه ومفتشا عن قواعده ومبانيه ، الى ان حصلت لى جملة من لا يسع للطالب المجتهد جهلها ولا يصلح للناظر فى هذا العلم إلا أن يكون عنده مثلها .

وحملتني المحبة فى ذلك العلم ، والولع به ، على ان جمعت ما اخترته واستحسنته من اشعار العرب ، جاهليها ومخضرميها واسلاميها ، ومولديها ، ومن اشعار المحدثين من اهل المشرق والاندلس وغيرهم . ما تحسن به المحاضرة وتجمل عليه المناظرة)) .

ومن الادلة على معرفة البياسى بالشعر ، وحسن تذوقه له ، الاشعار التى تضمنتها حماسته والتى اقتطف بعضا منها .

قال فى باب المراثى : قال ابو على القالى ، البغدادى : انشدنى ابو بكر بن دريد قال : انشدنا حاتم السجستانى :ـــ

الا فى سبيل الله ماذا تضمنت ... بطون الثرى واستودع البلد القفر
بدورا اذا الدنيا دجت اشرقت بهم ... وان اجدبت يوما فايديهم القطر
فيا شامتا بالموت لا تشمتن بهم ... حياتهم فخر وموتهم ذكر

ومن النسيب قول العباس بن الاحنف :

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه ... وان كنت مظلوما فقل انا ظالم
فانك ان لم تغفر الذنب فى الهوى ... يفارقك من تهوى وانفك راغم

وقول مجنون ليلى :

تعلقت ليلى وهى غر صغيرة ... ولم يبد للاتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم ياليت اننا ... الى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

وقول على بن عطية البلنسى بن الزقاق :

ومرتجة الاطراف اما قوامها ... فلدن واما ردفها فرداح
المت فصار الليل من قِصَرٍ به ... يطير وما غير السرور جناح
وبت وقد زارت بانعم ليلة ... تعانقنى حتى الصباح صباح
على عاتقى من ساعديها حمائل ... وفى خصرها من ساعدى وشاح

واورد فى باب القرى والاضياف والمديح ، قول ابى الحسن جعفر بن ابراهيم بن الحجاج اللورقى :

عجبـــــا لمن طلب المحامـــــــد وهـــــو يمنـــــع ما لديـــــه
ولبـــــــاسط آمالـــــــه للمجـــــــد لم يبسط يديـــــه
لم لا احب الضيـــــــــف او ارتـــــــاح من طرب اليـــــه
فالضيـــــــف يأكل رزقـــــه عنـــــدى ويحمـــــدنى عليـــــه

وروى مما نسب الى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما انه قال عندما كف بصره :ـــ

ان يأخـــذ اللّـــه من عينـــى نورهما ففـــى لسانى وقلبـــى منهمـــا نور
قلبى ذكـــى وذهنـــى غير ذى دخـــل وفى فمـــى صارم كالسيـــف مطـــرور

الى غير ذلك الكثير مما يدل على مقدرة ادبية واطلاع واسع .

معاصروه الذين تأثر بهم واثر فيهم :

لقد عاصر وصادق اعظم اقطاب الرواية (ابن خلكان ج٦ : ٢٣٦) والتاريخ فى زمانه ، وهو الشاعر والكاتب والمؤرخ ابن الابار ، الذى عايشه وصادقه فى بلنسيه ، والذى عاش ما بين ٥٩٥ هـ/ ١١٩٩ م ـــ ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م)[٩]

كما كان البياسى صديقا للعالم الشهير وشيخ عصره ابى المطرف احمد بن عبد الله ابن عمير المخزومى ، المولود فى بلنسيه سنة ٥٨٠ هـ/ ١٢٢٠ م والمتوفى بتونس سنة ٦٥٨ ه/ ١٢٦١ م[١٠]،وصادق الشاعر ابا جعفر احمد بن رضى (ابن سعيد ، ١٩٥٩ :٤٢٧) ، الذى كان نديمه على شرابه .

ومن اصدقائه الذين رووا الكثير من اخباره (المقرى ج ٣ ، ١٩٢٦ : ٥٥) ، ابن سعيد ابو الحسن على بن حوس بن سعيد ، المولود بغرناطة سنة ٦١٠ هـ/ ١٢١٣ م ، والمتوفى بتونس ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م .

هجرته الى تونس :

عاش البياسى فى بلنسيه كأحد علمائها من العرب الأشراف ، الى ان هاجر منها مع زملائه من علمائها وادبائها ، بعد سقوطها بيد خايمة الاول سنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ م ، وقد حل بتونس فى عهد اميرها ابى زكريا يحيى الحفصى ، الذى اشتهر بحبه للعلم والعلماء وبمكتبته الغنية ، التى نهل منها البياسى كما ذكرت سابقا . ونال حظوة لدى هذا الامير الذى قربه حتى اعتبره ـــ اى الامير ـــ من تلاميذه (ابن القنفذ ، ١٩٦٨ : ٩١٩) .

وقد الف له البياسى كتاب التاريخ (الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام) كما نسب اليه انه الف له كتابا آخر سماه (المستصفى) .

وقد وصف ابن عذارى حالة البياسى فى البلاط الحفصى فقال : ((وهو الآن ــ اى البياسى ــ عند سلطان افريقيه ابى زكريا يحيى الحفصى فى حظوة وراتب شهرى ...)) (ابن عذارى ج ٢ ، ١٩٤٨ : ٣٧١)

لقد اعتبر البياسى من اشياخ المؤرخين فى عهد هذا الامير ، وكانت مجالسه ممتعة يحضرها عدد كبير من متذوق الادب والشعر . كما ورد فى مقدمة (الحلة السيراء)[١١] ، ان البياسى استقر بتونس يعلم ويؤلف مما يدل على انه مارس مهنة التعليم بالاضافة للتأليف (ابن القنفذ ، ١٩٦٨ : ١٣٩/ ابن العماد ج ٥ ، ٣٥١ هـ/ : ٢٦٣) .

تلاميذه :

قيل انه عمل بالتعليم فى كل مكان حل فيه ، فتتلمذ عليه فى بلنسية قاصد بن على بن يعمر ابن بكر اليعمرى (المراكشى ، ٥٧٣) ، والغلام الذى عشقه بالجزيرة الخضراء ، وأخذ عنه ابن سعيد المغربى (ابن سعيد ، ١٩٥٩ : ٩٤ ــ ٩٥) الذى صاحبه فى اشبيلية وشريش والجزيرة الخضراء وتونس والذى روى عنه الكثير من الاشعار والاخبار بل انه اهم من ترجم له فى كتابه (اختصار القدح المعلى) وكان محبا لادب البياسى كما سبق وذكرت .

كما تتلمذ على يديه الامير ابو زكريا يحيى الحفصى امير تونس حيث ذكر ابن القنفذ ما نصه : ((وكان من احد طلبته ــ اى البياسى ــ الامير ابو ،كريا)) (ابن القنفذ ، ١٩٦٨ : ١١٩) وكان هذا الامير محبا للعلم والعلماء وعاش البياسى فترة طويلة ببلاطه وبرعايته والف له معظم مؤلفاته . وعمل خلال اقامته بتونس فى التعليم فتخرج عليه تلاميذ عديدون فكان ممن ساهموا مساهمة كبرى فى النهضة الفكرية بتونس فى عصره . فقد ورد فى الحلة السيراء (المقدمة) انه اقام بافريقيا يعلم ويؤلف كما ورد فى (المغرب) (وهو الآن عند سلطان افريقيه فى راتب وحظوه ..)

كتبه :

الف البياسى جميع كتبه فى تونس بعد هجرته اليها . ولم ينسب له قبل ذلك الا بعض الاشعار ومعظمها فى الخمريات والغلمان ، ووصف الحدائق واماكن اللهو .

والكتب التى تنسب اليه :ــ

١ ــ (الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام) فى جزئين ، كتبه وصنفه للامير ابى زكريا

يحيى الحفصى ، صاحب تونس سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م عندما قدم لتونس مهاجرا من الاندلس سنة ٦٣٦ هـ : ١١٣٨ م . وقد جمع اخباره مما رواه المؤرخون والرواة ، وجلها منقول حرفيا عن تاريخ الامم والملوك للطبرى ، ومروج الذهب ، للمسعودى ، والكامل فى التاريخ ، لابن الاثير وغيرهم .

وقد ذكر ابن خلكان بأنه قد اطلع على هذا الكتاب ، وانه كان يشمل الحوادث من مقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حتى خروج الوليد بن طريف الشارى على الخليفة هارون الرشيد (ابن خلكان ، ٥٤٨ ــ ٥٥١) . وقد امتدح ابن خلكان طريقة البياسى فى تصنيف الكتاب ، وشهد له بالخبرة فى هذا الفن ، واعتبر هذا الكتاب من نوادر الكتب لتاريخ صدر الدولة الاموية (ابن خلكان ج٦ : ٥٤٨ ــ٥١) وقد حققت الجزء الاول منه وحقق شاب عراق الجزء الثانى (الخطيب : ٢٦١) .

٢ ــ (الحماسة التونسية) او (الحماسة المغربية) :ــ

وهو كتاب مخطوط ، محفوظ بمكتبة الفاتح باستطنبول (بروكلمان ملحق ١ : ٥٨٩) تحت رقم (٤٠٧٩ مخطوطة) ، وقد ضمنه ما اختاره من نفائس اشعار العرب ، ورتبه على غرار ترتيب حماسة ابى تمام وهو فى مجلدين ، ومنه نسخة مختصرة فى (غوتة) (جرجى زيدان ج ٣ ، ١٩١٣ ــ ١٩١٤ : ٨٨) بالمانيا ، لدي صورة للصفحة الاولى منها .

لقد قال ابن خلكان عن هذا الكتاب : ((انها ــ اى الحماسة ــ فى مجلدين ، وانها قرئت عليه ــ اى على البياسى ــ وعليها خطه . وقد ورد فى اخر الكتاب ، وكان الفراغ من ترتيبه بمدينة تونس ــ حرسها الله تعالى ــ فى شوال سنة اربعين وستمائة هجريا (١٢٤٨ م) (ابن خلكان ج ٦ : ٢٣٦)

اما الكتب الاخرى المنسوبة له فى بعض المصادر ، فلم تتأكد نسبتها اليه ، لان هذه النسبة تمت دون دليل او عن طريق الخطأ ، وهى :ــ

١ ــ تذكير العاقل وتنبيه الغافل : فقد نسبه حاجى خليفة (حاجى خليفة ج ١ ، ١٣٨٧ هـ : ٦٩٢) ، لابى الحجاج يوسف ابن محمد الانصارى المعروف بابن الشيخ مؤلف (الف باء) البياسى المتوفى سنة ٦٥٣ هـ/ ١٢٥٥ م . وهذا خطأ واضح اذ ان هذا الكتاب هو لابى الحجاج يوسف بن محمد الانصارى البلوى المتوفى سنة ٦٠٨ هـ/ ١٢١١ م . ويبدو ان تشابه الاسم قد اوقع حاجى خليفة فى هذا الخطأ .

وقد نقل عن هذا الكتاب ــ (تذكير العاقل وتنبيه الغافل) ــ صاحب دليل مؤرخى المغرب الاقصى (المرى ج ١ : ١٤٣) وابن خلكان (ابن خلكان ج ٢ : ٣٦٧) ، فى شرحه لترجمة يوسف بن تاشفين مما يدل على انه رأى الكتاب ــ الذى تكلم عن تاريخ

المغرب كترجمة لملوكه . إلا أنني لم اتمكن من العثور عليه او على وصف دقيق له .
٢ ــ كما ذكر ابن سعيد ان للبياسي تاريخا ذيل به على تاريخ ابن حيان (ابن سعيد ج ٢ ، ١٩٥٩ :٧٣) ، حيث قال : ((له تاريخ ذيل به على تاريخ ابن حيان الى عصرنا)) ولكنه لم يذكر اسم هذا الكتاب ولم اعثر على ذكر أووصف لهذا الكتاب فى مصدر آخر .
٣ ــ كما نسب اليه البغدادى خطأ كتاب (الف باء) ، الذى هو فى الحقيقة ليوسف بن محمد البلوى ، المتوفى فى سنة ٦٠٨ هـ/ ١٢١١ م ، وهو فى جزئين مطبوعين .
٤ ــ وقال ابن القنفذ[١٢] ، بأن البياسى وضع كتابا سماه (المستصفى) ضمنه ما اختاره من صحيح الاحاديث ، وضعه للامير ابى زكريا يحيى الحفصى . ولم اعثر على هذا الكتاب ولم اعرف مؤلفه الحقيقى .

كتبه التاريخية :

عاش ابو الحجاج يوسف بن محمد بن ابراهيم الانصاري البياسي ما بين الربع الأخير من القرن السادس ومنتصف القرن السابع الهجريين ــ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ــ حيث ولد في الأندلس ، وعاصر أحداثها الدامية ، وسقوط ممالكها الواحدة تلو الاخرى بأيدي النصارى ، الى ان انتهى به الامر بسقوط المدينه التي قضى فيها أجمل أيامه ــ بلنسيه ــ ثم سقوط غيرها من المدن التي هاجر اليها حتى انتهى به المقام في تونس .

كان من نتائج المصائب المتتالية التي حلت بالاندلس في ذلك العصر ، أن اتجه العلماء والمفكرون نحو العلوم الدينية والتاريخية والادبية ، دون العلوم الدنيوية . ولعل ذلك ناتج عن محاولة طبيعية للعودة الى الله والدين والتاريخ الماضي الحافل ، في محاولة لتذكير الامة بماضيها وبدينها الذي يحض على الوحدة ، ونبذ التخاصم والتفرق ، وعلى مجاهدة الاعداء الطامعين .

لذلك مثل البياسي بمؤلفاته ميزات هذا العصر أصدق تمثيل . ففي الناحية الدينية رأيناه يجمع للامير أبي زكريا يحيى الحفصى ، مجموعة مختارة من الأحاديث النبوية الشريفة في كتاب نسب اليه اسمه (المستصفى) .

وفي الناحية الادبية ، نراه يقول الشعر ، ويولع بالادب ، ويحرص على الشعر الجيد فيختار أفضله ويضمنه كتابا اسماه الحماسة المغربية .

وفي الناحية التاريخية نراه يضع كتاب (الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام) ومن القاء نظرة فاحصة على هذا الكتاب نعرف مميزات أسلوب البياسي في كتابته التاريخية والتي ألخصها فيما يلي :ــ

١ ــ اعتمد في تاريخه أسلوب (الحوليات) المبنية على الترتيب الزمني للحوادث ، معركة

النهروان سنة ٣٨ هـ ، ولاية محمد بن أبي بكر لمصر سنة ٣٨ هـ ، مهلك الأشتر النخعي سنة ٣٨ هـ ..... ثم احداث سنة ٣٩ هـ ، ثم سنة ٤٠ هـ .....

٢ ــ لم يختلف عن سائر العلماء والمؤرخين المعاصرين والسابقين في طريقة تصنيفهم ، من حيث النقل عن كتب السابقين دون أن يبدى رأيا في الروايات التي يوردها ، وحتى ما كان منها مبالغا فيه لدرجة مخالفة للعقل والمنطق ، مقلدا في ذلك الطبري الذي يبدو أنه حاول أن يسير على طريقته ونقل عنه جل أخباره فأورد مثلا تنبؤات منسوبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه كما جاء في اللوحة (٨٥ أ) من مخطوطة « الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام » حيث أورد على لسان علي رضي الله عنه أنه قال : « ..... الا وان رسول الله أمرني بقتال القاسطين ، وهم هؤلاء الذين سرنا اليهم ، والناكثين ، وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم والمارقين ، ولم نلقهم بعد » ويقصد بالقاسطين من قاتلهم في معركة الجمل ، وبالناكثين من قاتلهم في صفين ، والمارقين الخوارج الذين قاتلهم بالنهروان .

ومما ذكره في اللوحة ٨٥ ب عندما تحدث عن خروج الخوارج « ... وأخبره الرسول (أي أخبر عليا) وكان رجلا من السواد (أي الرسول الذي نقل الخبر) أن القوم (يعني الخوارج) قد عبروا نهر طبرستان . وهذا النهر عليه قنطرة تعرف بقنطرة طخارستان ... فقال علي : والله ما عبروه ، ولا يقطعونه حتى يقتلهم الله بالرميلة دونه ثم تواترت عليهم الاخبار بقطعهم هذا النهر وعبورهم على هذا الجسر وهو يأبى ذلك ويحلف أنهم لم يعبروا وأن مصارعهم دونه . ثم قال : سيروا الى القوم فوالله لا يفلت منهم الا عشرة ولا يقتل منكم عشرة ..... » وغير ذلك كثير .

٣ ــ كان يكتفي بالنقل الحرفي عن المصادر كالطبري والمسعودي وابن الاثير ، ولم يكن يضع أية كلمة من عنده ، أو يورد أي تعليق بنفي أو ايجاب . لذلك فشخصيته في كتابه هذا منعدمة تماما . وكان أحيانا يشير لاسم الكتاب الذي نقل عنه ، وأحيانا يكتفي بالاشارة لاسم المؤلف فيقول : ذكر الطبري ، وأورد المسعودي ، وورد في ابن اسحق ... وهكذا كما كان يعتمد على مصدر واحد في بعض الروايات لبعض الاحداث وعلى أكثر من مصدر في سرده لروايات لاحداث أخرى ، كأن يورد أكثر من نص من أكثر من مصدر لحادثة وربما كان اعتماده على عدة مصادر لبعض الاحداث كان القصد منه اثبات صحة هذه الاحداث لهوى في نفسه . فمثلا اعتمد في روايته لخبر (قدوم زياد بن أبيه على معاوية ومصالحته له) في اللوحة ٥٠ ب من مخطوطة (الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام) على الطبرى وحده . حيث قال : « قال أبو جعفر الطبرى » وكذلك في روايته لـ « منصرف عبد الرحمن بن خالد بن الوليد من بلاد الروم ومهلكه في سنة ٦٦٦ م » في اللوحة ٥٨ أ . بينما نراه في خبر (ندم عمرو بن العاص خلال مرضه الاخير ووفاته) ، يعتمد على أكثر من مصدر ، فيصف مثلا في لوحة ٤٨ ب والتي تليها مرض عمرو بن العاص عن المسعودي في

مروج الذهب ثم عن المسعودي في التنبيه والاشراف ، ثم يروي الخبر عن البلاذرى ، وعن اليعقوبي . وهكذا ....

٤ ــ لم يعتمد على الاسناد في روايته للأخبار أو الاحاديث ، وان اورد بعضها فانه يوردها مختصرة ، ويذكر اخر راو للخبر ، ويحذف العنعنة في أكثر الاحوال . ولعل ذلك راجع لثقته في عدالة المصدر الذي ينقل عنه ، أو توفيرا للوقت أو اختصارا لحجم الكتاب . فنراه مثلا في روايته لرسالة على الى زياد بن حفصة يقول في اللوحة ٩ ب : ((قال : كتب على إلى زياد بن حفصه .... قال : اما بعد .... » في حين أنه نقل الخبر عن الطبري الذي أورده على النحو التالي « قال أبو مخلف عن أبي السلط الاعور التميمي ، عن أبي سعيد العقيلي ، عن عبد الله بن وائل ، قال : ..... » فأهمل البياسي كل هذا الاسناد .

٥ ــ كما أنه يهمل ما يرد في مطالع الرسائل والخطب وفي نهاياتها من بسملة وحمدلة ، واغفاله ذكر السلام في معظم ما رواه من الرسائل ، ولعل ذلك راجع لميله للاختصار أيضا .

٦ ــ كان المصدر الرئيسي للبياسي هو الطبري ، الا في حالات قليلة ، عندما كان يجد أن الطبري قد سكت عن حادثة أو اوجزها ، فانه كان يوردها من مصدر اخر فنجده يورد خبر هدم علي لدار مصقلة بن هبيرة بعد فراره الى معاوية عن المسعودي (لوحة ١٥ أ ، ١٥ ب من المخطوطة) كما يروي ايضا تامر المسيب مع ابن هبيرة وتمكينه له من الفرار (ص ١٦ أ) .

ويستشف من أخذه معظم رواياته عن الطبري وابي مخنف على ميله لآل علي ، ولا أدل على ذلك من تفصيله لخطب علي وأقواله ، وما أثر عنه ، وايجازه لأخبار معاوية . ومن تركيزه على خبر ندم عمرو بن العاص في أواخر أيامه خلال مرضه الأخير ، كما انني أرى أن تفصيله لصراع الخوارج مع الامويين ، دليلا على اعجابه بهم ، أو محاولة لاظهار قسوة الامويين وولاتهم ، ويبدو ذلك ايضا في تفصيله لخبر مقتل حجر بن عدي وأصحابه .

٧ ــ كما كان شأنه شأن من سبقه ومن تلاه من المؤرخين ، يركز في أخباره على الحوادث السياسية والحروب والنزاعات ، مهملا النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

٨ ــ كما أكثر من تسجيل الاشعار والرسائل والخطب ، وذلك راجع الى انه نفسه كان أديبا وشاعرا ، والى أنه كان متأثرا بأسلوب الطبري ، الذي كان هو الاخر قد أورد الكثير من مثل هذه الرسائل والخطب والاشعار .

٩ ــ يمتاز أسلوبه أيضا بالسهولة والوضوح ، واستخدام اخصر الالفاظ لاداء ما يريد من معنى هادفا عدم زيادة عدد صفحات كتابه ، ولم يلجأ في عناوينه الى السجع ولا لجأ اليه في سرده التاريخي ، كما لم يستعمل المحسنات البديعية .

وفاته :ـــ

بموت الأمير أبي زكريا يحيى الحفصي أمير تونس ، العالم المحب للعلم والعلماء وصاحب المكتبة الشهيرة ، فقد العلماء الاندلسيون نصيرهم وحاميهم والمدافع عنهم ضد حسد اخوانهم شيوخ البساط التونسيين الذين كانوا يحسدونهم على ما وصلوا اليه لدى بلاط هذا الأمير من مركز وتقدير .

فعندما تولى الامارة ابنه وخليفته الامير المستنصر الحفصي لم يعر هؤلاء العلماء الاهتمام المناسب ، وفقد معظمهم مراكزهم وامتيازاتهم كما فقد بعضهم حياتهم مثل ابن الابار الذي قتل واحرقت كتبه الثمينة .

أما أبو الحجاج والذي كان قد قارب على الثمانين من عمره ، فقد فقدَ منزلته لدى البلاط كغيره من زملائه ، فانزوى عن الأنظار وانطمس ذكره حتى توفي عن ثمانين عاما في سنة (٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م) ودفن في تونس .

الهوامش :

١ ـــ الحفصيون : فرع الموحدين ودولتهم جزء من دولتهم وهم قبيلة هنتانه ، أقاموا دولة في تونس وما حولها سميت بالدولة الحفصية .

٢ ـــ بياسه Baeza مدينة كبيرة بالأندلس ، تابعة في التقسيم الادارى الاندلسى لكورة جيان ، وهى مركز إداري ، تقع الى الشمال من جيان على بعد أربعين كيلو مترا على النهر الكبير . وأصل اسمها لاتينى Bosta وقد سقطت في يد فرناند الثالث سنة (٦٣٤ هـ/١٢٣٦ م) ومنطقتها سهل خصيب مشهور بخواته وجماله ، وحولها غابات كثيفة مما جعلها تشتهر بالاخشاب كما اشتهرت بالزعفران .
انظر ابن الابار : الحلة السيراء ، ٢ /٢٥٣ ، ٢٥٤ هامش ياقوت معجم البلدان : ٢ /٣١٨ .
المقرى : نفح الطيب ٤ /٢٠٣ .
ابن عذارى : البيان المغرب ٢ /٧١ .

٣ ـــ اشبيلية : من كبريات مدن الأندلس ، تقع على نهر الوادى الكبير في الجنوب الغربي من الأندلس ، وهي حسنة الجو والمباني ، ومشهورة ببساتينها وجمال منطقتها ولطف أهلها ، واشتهارهم بخفة الروح وحبهم للنوادر .
انظر نفح الطيب : المقرى : ٤ /١٦٨ ـــ ٢٠٠ .

٤ ـــ وادى شريتس : وتقع فيه مدينة شريتس ، وهي مدينة كبيرة من كورة شذونه وهي قاعدة هذه الكورة ، واسمها اليوم سرش .
انظر ياقوت : معجم البلدان : ١٢ /٣٤٠ ، ط . دار صادر سنة ١٩٥٧ م .

٥ ـــ وادى حمص : هو وادى اشبيلية التي كانوا أحيانا يطلقون عليها اسم حمص ، وذلك لان بني أمية عندما حكموا الاندلس سموا عدة مدن بها باسماء مدن الشام ومنها اشبيلية وقيل ان جندا من حمص ممن دخلوا الاندلس ، قد سكنوا بأشبيلية فسميت بالنسبة لهم .

قال محمد بن عبدون يذكرها :

هل تذكر العهد الذي لم أنسه ... ومودة مخدومة بصفاء
ومبيتنا في أرض حمص والحجى ... قد حل عقد صباه بالصهباء
ودموع طل الليل تخلق أعينا ... ترنو الينا من عيون الماء

انظر ياقوت : معجم البلدان : ١ /١٩٥ ، ٨ /٣٠٤ .

٦ ــ ياقوت : معجم البلدان : ٢ /١٣٦ ــ ١٣٧ . « وهي مدينة مشهورة بالاندلس قبالتها من البر سبته ، يحيط بها البحر من ثلاث جهات ، ومرساها جيد وتقع على نهر برباط .

٧ ــ ابن سعيد : هو ابن الحسن على بن موسى بن سعيد ، من أهل قلعة يحصب غرناطي ولد بغرناطة (ت ٦١٠ هـ /١٢١٣ م) .

قلعى كان كثير الأسفار ومداخلة الاعيان ، أخذ من علماء أشبيليه ، من تأليفه (المرقصات والمطربات) ، (المقتطف من أزاهر الطرف) ، (المشرق في حلى المشرق) عاش فترة مع ابيه في اشبيلية ، سافر الى مصر والى حلب ، سكن في تونس وتوفي بها سنة ٦٨٥ هـ /١٢٨٦ م .

٨ ــ هذا الأديب ليس ابن بار الآبار الذي كان يلقب ايضا بالفار .

٩ ــ أبو عبد الله المعروف بابن الابار : ولد بثغر بنسية سنة (٥٩٥ هـ /١١٩٩ م) وعاش بها حتى سقوطها ، تولى قضاء دانيه سنة (٦٢٣ هـ /١٢٢٦ م) وعد من شيوخ عصره ومن شخصيات بلنسيه . عمل كاتبا للرسائل للامير ابن جميل زهاد بن مردانيش أمير بلنسيه الذي أرسله على رأس وفد للامير ابن زكريا يحيى الحفصى امير تونس ، لطلب النجدة أثناء محاصرة خايمه الاول لبلنسيه كما اشترك مع الامير ابي جميل في مفاوضة خايمه الاول لتسليم بنسيه ، وكتب وثيقة التسليم .

هاجر كالبياسي وغيره الى تونس ، وعمل فيها كاتبا للانشاء والعلامة بديوان ابي زكريا يحيى الحفصى ، ثم ابعد عن منصبه لسوء طباعه وسلاطة لسانه ثم اعيد بعد أن اعتذر عن تصرفاته في كتاب سماه (اعتاب الكتاب) ثم عمل كاتبا للمستنصر الذي غضب عليه وقتله وأحرق مؤلفاته سنة (٦٥٨ هـ /١٢٦٠ م) وقيل أن عدد مؤلفاته بلغ خمسة وأربعين مؤلفا .
انظر الزركشي : تاريخ الدولتين ص ٢٧ .

١٠ ــ ابن الابار : الحلة السيراء ، « ابو المطرف : هو أحمد بن عبد الله بن عمير المخزومي ولد ببنسيه سنة (٥٨٠ هـ /١١٨٤ م) ، ورحل للمشرق للدراسة وتولى قضاء شاطبة وميورقة . وكان ممن انتدبوا لتسليم مدينة بنسيه لخايمة الاول ملك الأرغوان . وبعدها هاجر الى تونس وكتب للمستنصر الحفصى حتى توفى سنة (٦٥٨ هـ /١٢٦١ م) .

١١ ــ ابن الابار : الحلة السيراء ، المقدسة .

١٢ ــ ابن القنفذ : الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية : ١١٩ .
أبو عبد الله الشيخ محمد الباجي المسعودى : الخلاصة النقية في امراء افريقية .

المراجع العربية :

ابن الابار ، ابو عبد الله ، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ، **التكملة لكتاب الصلة** ، ط . القاهرة : ١٩٥٦ م .
الحلة السيراء ، تحقيق : د . حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ م .

ابن خلكان ، أحمد بن محمد بن أبي بكر ، **وفيات الأعيان وأنباء الزمان** ، ط . القاهرة .

ابن سعيد ، أبو الحسن علي بن موسى ، **اختصار القدح المعلى في التاريخ المعلى** ، تحقيق ابراهيم الابياري ، ط . القاهرة : ١٩٥٩ م .

ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي ، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ٨ أجزاء ، ط . القاهرة : ١٣٥١ ه .

ابن عذارى المراكشي ، **البيان المغرب في اختصار أخبار الاندلس والمغرب** ، جزآن ، ط . ليدن ١٩٤٨ .

ابن القنفذ القسنطيني ، أبو العباس أحمد بن حسين بن على بن الخطيب ، **الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية** تحقيق محمد الشاذلى وعبد المجيد تركي ، ط . تونس : ١٩٦٨ .

بروكلمان ، كارل ، **تاريخ الأدب العربي** . ج ١ ترجمة عبد الحليم النجار ، ط . دار المعارف .

البغدادي ، **هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين** ، مجلدان ، ط . استنبول : ١٩٥١ م .

جرجي زيدان ، **تاريخ آداب اللغة العربية** ، ٤ أجزاء ، ط . مصر : ١٩١٣ــ١٩١٤ .

حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله ، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** تحقيق محمد شرف الدين ، مجلدان ، طهران : ١٣٨٧ هـ .

الخطيب ، لسان الدين ، **أعمال الاعلام** .

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي ، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** تحقيق محمد أبو الفضل ، ط . القاهرة : ١٩٦٤ م .

عنان ، د . محمد عبد الله ، **عصر المرابطين والموحدين بالمغرب والاندلس** ، مجلد ، ط . القاهرة : ١٩٦٤ م .
عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، **أوربا في العصور الوسطى** ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٢ .
كحالة ، عمر رضا ، **معجم المؤلفين** ، ١٥ جزء ، ط . دمشق : ١٩٥٧ ــ ١٩٦١ .
المراكشي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي ، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة** تحقيق حسن عباس . ط. بيروت .
المرى ، عبد السلام ، **دليل مؤرخي المغرب الاقليمي** .
المقرى ، **نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب** تحقيق أحمد فريد . ط. القاهرة :١٩٢٦ م .
ياقوت الحموى ، أبو عبد الله الحموى ، **معجم البلدان** ، ٥ أجزاء ، ط . بيروت : ١٩٥٠ م .

*

شفيق جاسر أحمد محمود :

- حصل على الدكتوراه من جامعة عين شمس عام ١٩٨٠ .
- رئيس قسم التاريخ ــ الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة .